غزوة الجزائر البريطانية

للكاتب الانجليزي سير آرثر كونان دويل

بقلم الاستاذ محمد لطفي جمعة

روى الدكتور وطسن قال :

كان لحادث الهندي أثر عميق في نفس هولمز فقد ساق رجلا وامرأة إلى المشنقة على أهون سبيل ، ولم نعد نرى الوالد المشكول بعد تأدية شهادته في محكمة أولد بيلي . وقد طلب هولمز من القضاة أن يقبلوا الرمز لاسمه بحرف الكاف والهاء أمام الجمهور وأن يكتفوا بتقرير كتابي بدل الشهادة الشفوية المسبوقة بالقسم التي يحتمها القانون ، ولكن مخبري الصحف لم تفتهم حقيقة الأمر ولم تخف عنهم خافية ، فذكروا في جرائدهم أن بطل هذه المأساة هو مستر شرلوك هولمز نفسه كالعادة ؛ وقد بز رجال الشرطة الرسمية ولكنهم في النهاية يحصدون ثمرات جهوده ، لأنه يحب الاستخفاء كغيره من الهواة . فقال لي هولمز : خير لنا أن نقضي بضعة أيام في ريفيرا ، وهو شاطئ الذهب ومشتى الأعيان والسراة في جنوب فرنسا ، استجماماً وفراراً من هجوم جيش من طالبي الفتيا وهواة الاستشارة . فأبديت له معاذيري وتلكأت في إجابته متعللاً بزوجتي وطفلي الذي ما زال في المهد رضيعاً ، ولكنه لم يأبه لقولي وقدم لي شيكا دسماً قائلا : « هذا لتوظيف طبيب ممتاز يحل محلك في عيادتك » فعلمت أن لا مناص من مصاحبته . ولما فاتحت زوجتي في الأمر تهلل وجهها وقالت :

— يالها من فرصة سانحة تجمع بيني وبين مستر هولمز وما أطيب الأيام نقضيها في كنفه على شاطئ البحر . وفي الساعة الثامنة من صباح السبت التاسع من شهر فبراير سنة ١٨٩٠ — قصدت إلى مكتب شركة الأسفار في بوند ستريت فتقاضينا التذاكر وأجازات الرحيل لمركبة النوم والطعام . وبعد الظهر بساعة واحدة تحرك بنا القطار من محطة تشارنج كروس . وعند الساعة الرابعة انتقلنا إلى باخرة القنال الانجليزي فتناولنا الشاي قبل أن تطأ أقدامنا أرض فرنسا في ميناء بولوني ، وكان القطار السريع ينتظر الراكبين على إفريز الميناء فتبوأنا مقاعدنا في عربة عريضة مديدة مكتوب عليها بالخط الكبير بولوني سيرمير — نيس ومونت كارلو . فصرخت زوجتي صرخة صغيرة تدل على الفرح وقالت : هللو يا زوجي العزيز ! قد آن الأوان أن نقضي أجازة تعوض علينا شهر العسل الذي لم تتح لنا الأيام فرصته

فابتسم هولمز وقال : ويل للشجي من الخلي ! ما أسهل ما تلتمس المرأة أسباب السعادة وقال : الغاية الأولى الاستراحة والاستجمام وشهر العسل يأتي مؤجلا . بيد أني لا أرى لذة في شهر العسل بعد مولد الطفل الأول ، إنما تكون لذته للعروسين خالي البال

فضحكت وقلت له :

— من يسمعك تحكي هذا القول يعتقد أنك

خبير بنظم الزواج وطبائع النساء . وكنا قد أخذنا مقاعدنا فى مركبة المائدة ، بعد أن كان حارس القطار بتصفيف أمتعتنا فى أماكنها. وطلب هولمز إلى النادل أن يحضر قنانى المياه المعدنية التى يشربها ثم أمر لنا بالشاى ، وكان شديد العناية بمس جوفلز هامر مربية طفلى الصغير . وكانت الألمانية غضة بضة حمراء الوجنتين كأنها تحمل على خديها وردتين من ورود الربيع فأطلق عليها هولمز اسما جديداً يداعبها به وهو : « فراولاين بروز » فسرت بهذا الاسم كثيراً وسألته إن كان يتكلم الألمانية ، وكانت خادمى هذه من البساطة بمكان عظيم، فقال هولمز لها وهو يبتسم: « بضع كلمات لقنتها من أفواه الناطقين بها » ثم سكت برهة وقال لى :

— أتذكرها يا واطسن ؟

وكان لا يذكر ضمير المؤنث الغائب إلا وهو يقصد إليها : إلى السيدة جوزبند أدلر ، بطلة تلك المغامرة العريقة وهى فضيحة فى بوهيميا . وعند ما نطق باسمها لمحت فى عينيه بريقاً عجيباً ، حتى لقد سألت نفسى : هل تركت تلك المرأة فى نفسه أثراً . وهل كان يحبها لو أن الحب مما قسم له فى هذه الدنيا ؟ هذا ما لم أستطع الجواب عليه . كان هولمز يبدو لى ذا شخصية غامضة كل الغموض ولا يظهر منه إلا ذكاؤه الخارق كأنه مصباح نافذ الضوء فى وسط الضباب. فقلت له : نعم ومن ينس تلك المرأة ، يحرم نفسه أجل ذكرى وأوقعها وأبقاها

فقال هولمز : إن فضلها علىّ فى هوايتى أعمق أثراً من جمالها أو حنكتها أو سمة حيلتها أو دقيق فكرها ، فلولاها لم أكن لأتصل بتلك الدوائر السياسية التى كان لها الشأن الأول منذ حرب السبعين إلى وقتنا هذا ، فان الحرب الحاضرة بين مولداڤيا وزبنداڤيا مقدمة لحروب أخرى سيراها العالم ويخوض غمارها وهذه الحروب كلها ستكون أسلحتها الماضية وسائل التجسس

قلت : مصلحة الأخبار[1]

فضحك هولمز وأشار لزوجتى وخادمتى بالانصراف بعد أن شربنا الشاى وأكلنا السمك والخبز المتعدد الموه بالزبدة والمربى

وقال لى : سمها ما شئت ، ولكن اعلم أننى أنا الذى أسست هذا العمل الضخم ورسمت خططه ، فأخذوا فى تنفيذه بحذافيره دون أن يستشيرونى فى وسائل التنفيذ . ومن هنا

فبدت علىّ علامة الدهشة ، لأننى لم ألحظ فى أثناء احتكاكى به أنه تدخل فى النشاط السياسى ، ولم يكن يعير حرب مولدوفيا ضد زبنداڤيا أقل اهتمام فقال لى :

— أيدهشك ذلك يا واطسون ؟

قلت: لا ، ليس ثمة ما يدعو إلى العجب من ذلك، فان من له ذكاؤك وخبرتك يستطيع أن يفعل ما فعلت دون عناء أو مشقة. ولكن أين الشخص الذى تتوافر له الفطنة والخبرة . فان رجالاً مثل آشندن وكروسويل وجراسفارم جديرون بأن يكونوا تلاميذك ، والآن فقط أدركت سر عنجهيتهم وانتفاخ أوداجهم فانهم يسرحون ويمرحون على شهرة خطة أنت مدبرها وسبيل عبدتها لهم . فقال هولمز:

— الواقع أن شيئاً لم يستعص علىّ فى بلوغ غايتى ... وأثناء دراستى كنت أجمع المعلومات الخاصة بوسائل التجسس المولدوفى والمجروسوفانى

(١) Intelligence dehaitment

ووجدت السبل إلى إحاطة إدارة المخابرات فى لندن وباريس بمعض المعلومات المهمة فى أوقات متعاقبة

فقلت : أكبر الظن أن فرنسا وانجلترا والجمهورية الأمريكية أفادتا من وسائلك

قال هولمز: نعم، ولكن ليس هذا الذى يكربنى ويكربنى فى الوقت الحاضر ، وإنما الذى يكربنى انتقال ذلك الداهية الشديد الخطر ، الذى يعتبر الحياة رقعة شطرنج بيادقها وفلاحها وفيلتها ملوك الأرض وسواس الدول

قلت : أتقصد إلى البروفسور موريارتي ؟

قال : هو بنفسه فان هذا الرجل لا وطن له ولا دين ولا ملة ولا عقيدة ولا ضمير وقد باع نفسه لأعدائنا بنصف مليون جنيه ذهباً تسلمها عداً ونقداً وسمح له بأجازة حتى تمكن من إخفائها فى مكان مجهول ، ثم عاد وانقطع إلى محاربتنا بعقله

قلت لهولمز : وعلام استقر رأيك ؟

قال : لقد استقر رأيى على إحباط مناورته مهما كلفنى ذلك من جهد . غير أنى أدركت أنه لكى أتبعه إلى بلاد الأعداء يجب على أن أخترق فرنسا من شمالها إلى جنوبها

قلت : إن هذه المطاردة هى الأولى من نوعها ، لأنك خبرتنى من قبل أنك لن تمكن هذا الوغد من مقارنة مواهبه بمواهبك

فقال هولمز : صدقت يا وطسن ولكن هذا الشيطان مزود بأوراق تكفل له مخادعة رجال المخابرات السرية الانجليزية والفرنسية وقد وفق فى اختيار الاسم الذى انتحله لشخصيته الجديدة فضلا عن أنه يبدو للناس متواضعاً ، رضى الخلق ، مثقفاً لا تفارق الابتسامة شفتيه الدقيقتين حتى فى أحرج المواقف ...

وكان القطار السريع يطوى سهول فرنسا وديانها ويخترق الحقول والبطاح ويصعد فى الجبال ويمر خلال الأنفاق وينساب تارة كالأفعوان وطوراً يندفع كالسيل المنهمر . ونحن من هذه المركبات الفسيحة فى نعمة لا يقدرها إلا القليل من أهل الفطنة ، فهنا مجلسك ومطعمك ومنعمك ومشربك ومثناك على مجل يتحرك ويدور بسرعة ثمانين ميلا فى الساعة الواحدة

وكان القطار يقف فى المحطات الكبرى دقائق معدودة . وعند ما يبلغ محطة كبرى مثل ديجون أوليون ينزوى هولمز فلا يبدو لأحد ، ثم أراه يصعد فجأة قبيل تحرك القطار بقليل ولا أسأله عن مكمنه أو مسرحه أثناء وقفة القطار . ولما كانت الساعة التاسعة تناولنا طعام العشاء وعلمنا أن القطار يبلغ ثغر مرسيليا عند الفجر ثم يعرج على ثغر طولون الحربى ، وكان هذا الحصن البحرى مغلقاً من الجانب الشمالى فلا تطأه قدم المدنيين بسبب الأعمال الحربية القائمة على ساق وقدم .

ولم يكن ثغر طولون أو مرفأ بونابرت أوحياض الاصلاح والتعويم الهولة التى بناها مهندسون بحريون من فرنسا وانجلترا هى التى تهمنى فى تلك اللحظة ، ولكن الذى كان يهمنى زيارة مونتكارلو وكان أنيسى فى صحبة امرأتى ومجاتنا نحن وطفلنا الصغير من أهوال البرد القارس فى انجلترا أثناء هذا الفصل الشديد الرطوبة والضباب ...

وأيضاً ... وهذه مسألة أخجل من ذكرها ، فضلا عن تدوينها ... تجريب حظى على مائدة اللعب فى مونتكارلو ... فنحن الأطباء نعلم أن المقامرة أظهر معالم الحظ فى الحياة . وهى تتفق

وصنعتنا انفاقاً تاماً . فان صنعتنا حظ وحذر وكذلك المقامرة . ولكن مالى أراني قد اندفعت فى تسجيل خواطرى ؟

عند الفجر بلغنا مرسيليا وعند الظهر كنا فى مرفأ أنتيب وهو ركن من جنة الفردوس فى وسط الشتاء . واتخذنا موطناً مؤقتاً ، وموئلا فى فندق « جراندا وتيل ريش » وفى الحق أنى شديد القصر من أسماء هذه الفنادق التى تدور على العظمة والثراء وتبعد عن البساطة التى نقيمها فى تسمية فنادقنا الطيبة الهادئة . وكانت شرفات ذلك الفندق الفخم التى تطل على البحر بطبيعة الحال ، كما أن له بستاناً غنياً فى جنوب البناء فيه نفائف الأشجار وبدائع الأزهار ونفائذ الثمار .

وفى الليلة الثانيـة استأذنته فى السفر إلى مونتكارلو فاستمهلنى يوماً وليلة .

وقد لقيته فى إحدى شرفات الفندق المطلة على البحر وكان متكئاً بمرفقيه على حاجز الشرفة وقد تجلت فى عينيه نظرة لامعة وإن كانت ساهمة مما دلنى على أنه مستغرق للتفكير ، وظل ينقل بصره بين صفحة المـاء ووجه السماء الذى زينته للعناية بأضواء ومصابيح كأنه يريد أن يستشف ما وراء الحجب .

وقد هالنى وآلمنى أن يقضى هذا الرجل العجيب حياته بعيداً عن عواطف الحنان والرحمة التى يمكن أن تسبغها على قلبه الكليم امرأة مخلصة وودود ، ولكن أنى لى أن أعبر له عن إخـلاصى وحبى إياه ورغبتى فى إسعاده؟ لقد خيل إلى أنه يشعر بالخوف، لا من الموت ولا من المرض أو الفاقة ، ولكن خشية أن يدهمه القدر قبل أن تحين الساعة الرهيبة التى يتلهف عليها ، تلك الساعة التى يقضى فيها على الرجل الذى باع دينه وشرفه وعقله ليبيع وطنه للأعداء . لقد خيل إلى أن هذا كل ما يطلبه هولمز من الحياة ، فاذا تحقق هذا المطلب فليكن بعد ما هو كائن . لم يكن حب الوطن وحده ، أو مقاومة الشر أو رغبة الانتصار على خصم قوى عنيد هى التى تحركه ، بقدر ما كان هواه فى تخليص الانسانية من ذلك العقل المجرد الذى يلبس الشر ثوباً محكماً على أجزائه .

وفى صباح اليوم التالي فاتحت مستر هولمز فى رغبتى ، ولشد ما دهشت عندما علمت أنه هو أيضاً يرغب فى مشاهدة مونتكارلو وذلك «الكازينو» الفخم الذى يزينها . وكانت الشقة بين أنتيب وعاصمة موناكو ضئيلة . وكان هولمز قد احتجز لنا بالتلفون مائدة فى البهو البلورى الذى نسقته يد الأناقة والبذخ أجمل تنسيق . وكان هولمز بعـد الفراغ من العشاء يجوس خلال القاعات الارجوانية الفخمة التى مدت فيها موائد اللعب الخضراء . وللمرة الأولى وجدته مستخفياً فى زى كونت إيطالى بلحية كثة مستطيلة ومرعان ما التف حوله فريق من بنى جلدته المزعومة كان يتحدث إليهم بلغتهم بفصاحة نادرة . وكانت زوجتى قد أتقنت تلك اللغة فى أوقات الفراغ .. وفجأة شق تلك الصفوف رجل قصير القامة عريض المنكبين وأخذ يتكلم بالفرنسية الفصحى للغيف من السيدات والفتيان الذين جاءوا ليقضوا إجازة آخر العام وقد أصغيت إليه وتحولت عن الحلقة التى كان يقف حولها هولمز فقال :

« إذا حدثتكم أنفسكم باستغلال شهرتكم أو ثروتكم والتوسل بها لأغراضكم الشخصية وشهواتكم البدنية

المادية ، فالويل للانسانية منكم والويل للحقيقة من شعوذتكم والويل لأبطال الرأفة والرحمة والعدل والخلق الكريم من خيانتكم ونكرانكم وجحودكم ستكون أحسابكم وأنسابكم وأسماؤكم أكبر مساعد لكم على خداع السذج ومضاعفة الأغلال في أعناقهم. لقد أدهشكم أن تجدوا الناس والمجتمعات تسير على نظم تخالف ما تفرضه الفضيلة فلا يأخذنكم العجب لأن السلطان لا يزال بأيدى المشعوذين والدجالين. وفي الوقت الذى يسيطر العلماء المتخصصون على القوى التي تدير العالم ستحل مشاكل كثيرة. ستجدون أناساً يصفون الأبيض بالسواد والأسود بالبياض وآخرين يعجدون الجبروت والطغيان ويحتقرون من تملأ قلوبهم عواطف الرحمة والحنان وينعتونهم بأهل الخيال والسخف. ستجدون لصوصاً ينحنى الناس أمامهم خوف لا لاحترام، وقد يقدمون شرفهم وضمائرهم وكرامتهم لتداس بالأقدام، ومثل هؤلاء كمثل الجندي الذى يتسلم السلاح والعتاد للدفاع عن وطنه فاذا ما لاقى كمة العدو هى الراجحة انضم إلى المنتصرين وسدد نار سلاحه إلى قلوب بنى وطنه وأهل جنسه

وفي تلك اللحظة كان الكونت كاسياني أو كاسيني يقترب من حلقتنا شيئاً فشيئاً وهو يصغى إلى كلام الرجل.

ثم استدرت لحظة واتجهت نحو المائدة الوسطى المستطيلة وهى التي عليها لعبة الروليت الشهيرة وكان « الكروبييه » وهو الموظف الموكول إليه حصاد المال وتوزيعه بين اللاعبين يقول: لا شيء ينزل إلى المائدة، لقد تمت الصفقة. ادفعوا نقودكم ورسوها رساً قبل الختام. فسمعت خافي صوتاً ناعماً يقول:

ليس في اللعب. ليس من أصوله. وآخر يقول: عليك أن تطيعى وتنفذى! ليس من شأنك أو شأنى أن نجادل

ورأيت الكونت كاسياني يشق الصفوف ويهمس في أذني: خذ حذرك من الظلام. ولم يكد ينطق بهذه الألفاظ حتى أطفئت الأنوار فجأة ولم يبق في الغرفة ضوء ثقاب، وساد الهرج فخطوت إلى اليمين خطوة وقبضت على يد زوجتي وسحبتها متقهقراً وإذا بصوت يدوى كالرعد:

— لقد خاطرت بحياتك يا موريارتى وخلطت بين الخيانة في السياسة وبين سرقة قطاع الطريق. هل قبضت عليه يا جريفين؟ لقد سهلت الأمر لكم. واختلطت أصوات النساء بأصوات الرجال وسمعنا طلقات الرصاص في الظلام وتحطيم مرآة كبري، واستغاثة وصفيراً، وقد أخذت حذرى كما نبهت منذ هنيهة وقادتنى الغريزة وزوجتى إلى باب الخروج بعد أن اصطدمنا مرتين أو ثلاثاً في عمود من الرخام الوردى أو في مقعد مقلوب كدنا نتعثر فيه، لولا أن الله سلم. وكانت ساحة الكازينو الكبير هى الأخرى مظلمة، ولكن نجدة الشاعل قد وصلت إلينا فخرجنا جميعاً صاخبين صارخين وقد سلبت النساء حليهن والرجال نقودهم وبعض أسلحتهم، وكان يودى أن أفدى هولمز بحياتى لو أمكننى الاهتداء إليه وقد تبينت كل ذوى اللحى فلم ألمحه بينهم ولم يكن يخيفني شيء عليه بقدر الغدر. فإن موريارتى وأعوانه لا يترددون في أن يوردوه الردى بخنجر خائن أو وخزة دبوس مسموم، وقد حشدنا جميعاً في بهو الطعم الكبير ولم نستطع حركة وبقينا رهن تحقيق البوليس

وفى الصباح خرجنا من الجو مبللين ممزقين مهلهلين ، ومشينا إلى فناء الكازينو بخطى متثاقلة . وكان الفناء يغص بزائرى الكازينو الذين أطفئت عليهم الأنوار وسلبت نقودهم ورأيت ضباط البوليس السرى وهم يستجوبونهم فرداً فرداً بينما كان مدير الكازينو وحصاد المال « كروبييه » عند الباب الكبير ينتظرون الأوامر

وكان من العبث أن يرفض أحد اللاجئين الاجابة عما يلقى إليه من الأسئلة أو الامتناع عن تقديم « جيوبه » أو حقيبة اليد للتفتيش والفحص الدقيق وإبراز الوثائق الخاصة بتحقيق شخصيته ومركزه الاجتماعى وماضيه وعمله فى الحاضر وما يعتزم القيام به فى المستقبل ، وكان أى تردد أو تلعثم أو ارتباك كافياً لأن يعيد أحدنا إلى المطعم مقبوضاً عليه . لم أندم فى حياتى على شىء ندمى على موافقتى على اقتراح هولمز فى مصاحبته إلى شاطىء ريفييرا . وكان الذي يهمنى أكثر من كل شىء خوفى على أعصاب زوجتى من الاختلال فقد تمزق نياط قلبى من الظلام والخوف . وقلق البال على هولمز الذى افتقدته ... وقبيل الظهر وصلنا إلى الفندق ونحن بحال من الاعياء لا مثيل لها . ولكن كان همى الأول أن أعلم ماذا حل بهولمز الذي سمعت صوته بلا ريب وكان متزيياً بزى الكونت كاسيانى .

أما زوجتى فقد لزمت الفراش عليلة مما أصابها من الانزعاج وبلبلة الخاطر .

وفى الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم دق تليفون الغرفة التى تقطنها زوجتى وأنا ، وإذا بهولمز يستبطئ حركتنا فى مؤاكلته على مائدة العشاء . فلبينا دعوته مبتهجين . فألفيناه حليقاً معطراً منظما يزدهى فى « ثوب المساء » المحكم التطريز ، المحبوك الأطراف

ولم تكد عينه تقع على حتى قال :

لقد كانت غزوة موفقة ، فقد البنك أثناءها مليونى فرنك ، وفقد النساء نصف حليهن ، والرجال بعض أموالهم . ثم ضحك ضحكة عالية . أما نحن فقد خسرنا موريارتى ، ولم نتمكن من القبض عليه ، وإن كنا قد سمعنا صوته واعظاً .

فقلت : وماذا نكسب إذا خسرنا موريارتى ؟

أجاب وهو يبتسم ابتسامة عريضة حلوة :

لقد كسبنا غزو بلاد انجلترا واسكوتلاندا وإيرلاندا بلاد الغال . وأخرج من جيبه خريطة ملونة ونشرها على المائدة . وقال :

والذى يفرحنى وأغتبط له أن هذه الخريطة مفردة وقد احتوت على مفتاح الشفرة ، فلا نحتاج لفناء حل رموزها ، لقد أعدها موريارتى فهى خلاصة دراسة عشرين عاماً وتجسس لخمسة أعوام . خذها يا واطسن وسافر فوراً إلى لندن . إن لورد كراوبروك أوف كانتورباج ينتظرك فى دونتج ستريت وأبق زوجتك معى وخادمتها كذلك ، وفى أثناء غيابك ... سيقبض على أياماً معدودة ، ولم يكد ينتهى من حديثه وأفرغ من طى الخريطة ووضعها فى أخفى مكان فى ثيابى حتى تقدم إلينا أربعة من الشرطة وقال أحدهم بلغة مونتكاتيني : سنيورى أيكما سنيو سارلوكه هولمز ؟ فأشار هولمز إلىّ وقال : أما أنا فصاحبه دكتور واطسن ، فخلوا سبيلى وألقوا القبض عليه

وبعد عشرين ساعة كانت خريطة الغزوة البريطانية فى إحدى خزائن وزارة الحربية وقد اجتمع الوزراء لدراستها وفحصها .

محمد لطفى جمعة